

القيم الطبية بين الماضي والحاضر

د. محمد علي البار
مدير مركز أخلاقيات الطب
المركز الطبي الدولي
جدة

- يقول العز بن عبد السلام في كتابه قواعد الأحكام ، " الطب كالشرع وضع لجلب مصالح السلامة والعافية ولدرء مفسد المعاطب والأسقام . " وقال ﷺ : " المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير . " وقال ﷺ : " سلو الله العفو والعافية . "
 - يقول أبو بكر الرازي في كتابه " أخلاق الطبيب " إن للأطباء فضلاً لم يجتمع لغيرهم ، وذلك لاتفاق أهل الدين وأهل الملك والدولة على تفضيل صناعتهم على سائر الصناعات ، واعتراف الملوك والعامّة بشدة الحاجة إليهم . كان للأطباء مكانة في مختلف أدوار التاريخ ، وقد اشتهر امحوتب الطبيب والمهندس المصري الذي عاش قبل 4800 عام وتحول لديهم إلى إله للطب . عند اليونان : عبدوا أبولو كما عبدو هيجا (Hygiea) ومنها جاء اسم (Hygiene) الصحة ، وبانيسيا (Pancea) ومنها جاء اسم الدواء الشافي لكل مرض (Pancea) .
 - كان المسلمون يطلقون على الطبيب لفظ الحكيم ، لانه اشتهر بالحكمة . ولم يفرق المسلمون بين طبيب مسلم وطبيب غير مسلم . الغريب حقا أن أطباء البلاط على مدى 1300 عام أو أكثر (أي منذ عهد معاوية بن أبي سفيان إلى عهد عبد الحميد الثاني ومحمد رشاد في آخر الدولة العثمانية) كانوا في غالبيتهم الساحقة من اليهود أو النصراني أو الصابئة .
 - اهتم فقهاء الاسلام بالطب دراسة وممارسة واحكاما . واشتهر كثير من علماء المسلمين بالطب منهم ابن رشد الحفيد الفيلسوف الفقيه قاضي القضاة وله كتاب " الكليات " في الطب كما له كتاب " بداية المجتهد ونهاية المقتصد " في الفقه . ومنهم المحدث واللغوي عبد اللطيف البغدادي ، وتلميذه المحدث البرزلي ومنهم الفخر الرازي ومنهم ابن القيم صاحب (الطب النبوي) ، كما اشتهر الامام المازري المالكي بالطب .
- والتداوي تدور عليه الأحكام الخمسة فتارة يكون واجباً ، وخاصة في الحالات الاسعافية لانقاذ حياة أو عضو ، أو في الأمراض المعدية السارية التي تنتقل إلى الآخرين ، وبالتالي تضر المجتمع ، وتارة تكون مندوبة إذا ترجح العلاج لمرض غير معد ولا خطير ، وتارة يكون العلاج مباحاً ، وتارة يكون مكروهاً إذا كان الضرر من العلاج مخوفاً ، وتارة يكون محرماً إذا كان العلاج بمحرم أو مسكر أو خنزير وله بديل ، أو بسحر أو طلسمات أو رقى غير مفهومة ، أو ما يداخلها شرك ومعتقدات باطلة من العلاجات مثل الزار والذبح للجن وغيرهم .
- ولا نرى هذا الاهتمام بإذن المريض إلا في العصور الحديثة وبالذات من بداية السبعينات من القرن العشرين حيث ظهر مفهوم الإذن المتبصر الواعي (Consent Informed) ولم يعد يكفي إذن المريض أو وليه إذا لم يكن المريض قد فهم نوعية الاجراء الطبي أو الجراحي أو أي نوع من انواع الفحوصات الباضعة (Invasive Procedures) .

اهتم الطب الحديث بمفهوم استقلالية المريض (Autonomy) اهتماماً بالغاً، ويندرج تحت مفهوم استقلالية المريض (Autonomy) قدرته على اتخاذ القرار بقبول العلاج أو رفضه المبني على المعلومات الصحيحة والواضحة من الفريق الصحي ، المقدم لهذه الخدمة الصحية .

لم يكن الطبيب في المبادئ البقرائية يلتفت إلى المجتمع بأي حال من الأحوال ، وهي المبادئ التي استمرت حتى بداية أو منتصف القرن العشرين .
وباتساع دور الطبيب والخدمات الصحية كان من الواضح أن هناك قصورا في المبادئ البقرائية في جانب المجتمع وعدالة توزيع الخدمة الصحية .
اهتم المسلمون منذ العصر العباسي في عهد الخليفة المقتدر بإرسال الأطباء والأدوية إلى الأرياف والنجوع والقرى البعيدة كما اهتموا بمداواة المسجونين والأسرى ، اهتماماً بالغاً.

- شهد النصف الثاني من القرن العشرين تطورات سريعة ومتلاحقة في المفاهيم الطبية . وطالت هذه التغييرات المتسارعة المهنة الطبية .
أصبح يطلق على المريض اسم العميل (Client) وعلى الطبيب اسم مقدم الخدمة الصحية (Health Provider) .
واستطاعت أفكار السوق والعمل التجاري (Business) أن تغزو المهن الصحية على نطاق واسع وكان للولايات المتحدة الدور الريادي في هذا التحول ، وازداد شراسة بدخول عصر العولمة .
وتمكنت الشركات الضخمة في المجال الصحي وصناعة الأدوية أن تسيطر على النظام الصحي في الدول المتقدمة ، وبالتعبئة دخلت جميع الدول الأخرى تحت عباءتها وتأثيراتها .
استطاعت الولايات المتحدة بإيجاد نظام السوق والعمل التجاري في المهن الطبية أن تطور هذه الخدمات من ناحية ، ولكنها من ناحية أخرى جعلت أكثر من أربعين مليون مواطن أمريكي بدون تأمين صحي على الإطلاق . واستطاعت كوبا رغم الحصار والمحاربة أن يكون مستواها الصحي أفضل بكثير من مستوى أربعين مليون أمريكي بدون تأمين صحي .
وضبطت الولايات المتحدة ممارسات المهنة الطبية بمجموعة من القواعد الأخلاقية ، والقوانين ومجموعة من المحامين (أطباء تخصصوا في القانون في الممارسات الطبية) .

- وتختلف نظم المهن الصحية في العالم الثالث وفي الدول العربية الإسلامية
ومع دخول عنصر الطب الخاص (Private Sector) وتوسعه بشكل كبير في المملكة مع عدم وجود كثير من الضوابط وعدم انتشار الوعي ، فإن بعضا من المستشفيات والمستوصفات والعيادات الخاصة تحولت إلى تجارة بحتة ، وفي كثير من الأحيان إلى استغلال المريض ووجود ممارسات غير أخلاقية ، واجراء عمليات جراحية غير مطلوبة أو اجراء فحوصات متعددة لزيادة دخل المستشفى ... الخ .
إن عدم التزام المريض بطبيبه أو بطبيب العائلة ، أو انتقاله من طبيب لآخر ، ومن مستشفى لآخر ، مع عدم معرفة الطبيب التالي لما فعله الطبيب الأول يجعل هناك هدرا كبيرا في الوقت والمال واجراء الفحوصات .

- ولا شك أن رضاء الجمهور عن الخدمات الطبية يتناقص ، والشكاوى تزداد .
وتكمن بعض نواحي المشكلة في النظام الصحي ، وعدم التزام المريض بنظام طبيب العائلة أو الممارس العام ، (General Practitioner) وبالتالي استمرار انتقال المريض من طبيب لآخر دون مسوغ ولا داع .
ومما يفقد الجماهير الثقة في الأطباء والأنظمة الصحية ما يظهر من فضائح في المجال الطبي وخاصة في مجال إجراء التجارب .

- من أشهر هذه الفضائح من الناحية الأخلاقية في مجال البحث العملي الطبي ما حدث من مخازي التجارب الطبية التي أجراها النازيون أثناء الحرب العالمية الثانية والتي تم فضحها في محاكمات نورنبرج عام 1944 وعام 1945 حيث تمت إدانة 23 طبيبا نازيا كانوا يقومون بتجارب على الأسرى من المعتقلين (اليهود البولنديين والروس والعجزة) . ولم تؤد هذه التجارب إلى اكتشافات عملية أو أي تقدم في مجال الطب .
وما هو أشد منها وأفظع ما حدث في الولايات المتحدة عندما قرر الأطباء والإدارات الطبية المتعاقبة في الاباما في توسكجي باجراء تجربة على 400 أسود أمريكي من الفقراء والجهلة كانوا يعانون من مرض الزهري. وبدأت التجارب عام 1932، وتم إيهامهم والكذب عليهم وخداعهم بأنهم سيتم علاجهم بعد اجراء الفحوصات، واستمرت الفحوصات تجرى بصفة منتظمة دون اعطاء أي واحد منهم أي دواء حتى بعد ظهور البنسلين وثبات فوائده، واستمر الأطباء والإدارات الطبية المتعاقبة في خداع هؤلاء المساكين ، وأخذ عينات من دمائهم وأعضائهم ومن السائل الشوكي، وإذا توفي احدهم يقوم المستشفى بأخذ عينات من أعضائه ويتحمل المستشفى تكاليف الدفن .
واستمرت الجريمة على مدى أجيال وأجيال من الإدارات الطبية حتى قام طبيب له ضمير حي بفضح هذه الجريمة البشعة في الاعلام عام 1972 مما أثار الرأي العام ضد هذه التجارب ، وأنداك فقط وافقت وزارة الصحة الامريكية على إيقاف التجربة عام 1973 وماتت غالبية من أجريت عليهم هذه التجربة البشعة من الزهري كما أصيب عدد من زوجاتهم وأطفالهم بالزهري الولادي (Congenital Syphilis) .

وبدون تعميق هذا المفهوم الديني السليم في بناء المجتمع فإن مزيدا من التمزق والضياع والانحدار الاخلاقي والتفكك الأسري واضطراب علاقات المريض مع الطبيب ستزداد شراسة كل يوم وخاصة مع انتشار عقلية السوق ومفاهيم العولمة واللهات وراء المكاسب بكافة الوسائل المشروعة وغير مشروعة .